

الأئمة الأربعة

أبو حنيفة • مالك بن أنس
الشافعي • أحمد بن حنبل

تأليف

أحمد الشرباصي

دار الهلال

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

أحمد الله تبارك وتعالى ، وأصلى وأسلم على أنبيائه ورسله وعلى خاتمهم سيدنا محمد ، وعلى آله وصحبه ، وأتباعه ، ومن دعا بدعوته بإحسان الى يوم الدين . وأستفتح بالذى هو خير : « ربنا عليك توكلنا ، واليك أنبنا ، واليك المصير »

قبس من كتاب الله

« وما كان المؤمنون لينفروا كافة ، فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ، ليتفقهوا في الدين ، ولينذروا قومهم اذا رجعوا اليهم ، لعلهم يحذرون »
« سورة التوبة »

وشعاع من هدى النبوة

« من يرد الله به خيرا يفقهه في الدين »

« حديث شريف »

تقديم

الأئمة الأربعة هم أئمة الفقهاء الأعلام ، وهم أصحاب المذاهب الفقهية الأربعة التي شرقت وغربت ، واشتهرت بين الناس في الماضي والحاضر ، وهم : أبو حنيفة النعمان ، ومالك بن أنس ، ومحمد بن ادريس الشافعي ، واحمد بن محمد بن حنبل ، رضوان الله عليهم اجمعين

وانما بلغ هؤلاء الأئمة ما بلغوا من منزلة ومكانة بما بذلوه من جهود عظيمة في خدمة الشريعة الغراء والفقه الاسلامي ، وبما خلفوه هم وأمثال لهم من تراث فقهي ضخم سيظل مفخرة كبرى للاسلام والمسلمين ، واذا كان الأئمة الأربعة قد تألقوا في العصر الذهبي لنمو الفقه وازدهاره ، فقد تقدمت جهود مختلفة بذلها على الطريق أعلام تكاثرت أسماؤهم ، وتوالى خطواتهم ، منذ بزغت شمس الاسلام الى ان تسلم هؤلاء الأئمة الأربعة من سابقهم مواريث التشريع والاستنباط والفقه ، فقاموا على صيانتها وتنميتها ، ومضاعفة ثمراتها ، وبث خيراتها بين الناس ..

ولعل ادراك هذا على وجهه يقتضينا القاء نظرة على تاريخ التشريع وتطور الفقه ، فقد أقبل الاسلام ومنبع تشريعه وأساس أحكامه ومصدر تعاليمه هو القرآن الكريم : كتاب الله عز وجل ، الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، تنزيل من حكيم حميد . والقرآن كتاب عقيدة وشريعة ، فكما تحدث عن المعتقدات والعبادات ، تحدث عن النظم والأحكام الدنيوية ، فجاءت فيه آيات كثيرة عن أحكام الأسرة ، وعن البيوع والمعاملات ، وعن الجنایات والعقوبات ، وعن العلاقات الفردية والجماعية والدولية ..

ثم كان الى جوار القرآن المجيد حديث الرسول عليه الصلاة والسلام ،
الذى بيّن وفسّر ، وخصص وقيد ، وشرح وطبق .. وفي كل باب من
أبواب الفقه الاسلامى نجد مجموعة من الأحاديث التى تتكفل بهذه
المهمة ، مصداقا لقول الله سبحانه وتعالى لرسوله : « وأنزلنا اليك
الذكر لتبين للناس ما نزل اليهم ، ولعلهم يتفكرون » . وقد بين الرسول
بالقول والفعل والتقرير ، وكلما تطلب المسلمون حكما فى أمر فرعوا
الى الرسول يستنبثونه ويستهدونه ، فيجيبهم بوحى الله تعالى وتوجيهه :
« وما ينطق عن الهوى ، ان هو الا وحى يوحى »

وعلم الرسول صحابته بما علم ، وكان لهم من حسن التلقى ، ودقة
الفهم ، وصدق الاتباع ، واخلاص الاهتداء ، ما جعل أقوالهم موضع
القبول والتقدير ممن جاء على آثارهم ، ورضى الرسول لصحابته ان
يجتهدوا اذا لم يجدوا نصا أو حكما سابقا ، بحيث لا يقصرون فى
الخضوع لكتاب الله ، والرجوع الى سنة رسول الله ، والتقييد بمبادئ
الدين وقواعده ..

وهذا رسول الله صلوات الله وسلامه عليه يبعث بمعاذ بن جبل
الى اليمن داعيا وهاديا وقاضيا ، ويسأله : « كيف تصنع اذا عرض لك
قضاء ؟ » . ويجيب معاذ : « اقضى بما فى كتاب الله » . قال الرسول :
« فان لم يكن فى كتاب الله ؟ » . فأجاب : « فبسنة رسول الله » .
قال : « فان لم يكن فى سنة رسول الله ؟ » . فأجاب : « اجتهد
رأبى ولا آلو » أى لا أقصر ..

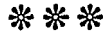
فضرب النبى صلى الله عليه وسلم صدر معاذ بيده كالمعجب به ، وقال :
« الحمد لله الذى وفق رسول رسول الله لما يرضاه رسول الله ! »

ولم يقيم الفقه أو استنباط الأحكام فى عهد الرسول على افتراض
الحوادث أو تخيلها ، بل قام على الواقع ، اذ يعرض الأمر من الأمور ،
فيأتى الحكم بنص القرآن أو هدى الرسول ..

وكان من الطبيعى أن يتسع نطاق الفقه بعد عهد الرسول ، لأن الفقه

كالكائن الحي الذي ينمو مع الأيام ، اذ هو مرتبط بالحياة والأحياء ، وبالاجتماع والمجتمع ، وكلما زادت الحياة اتساعا زاد الفقه انفساحا . وقد اتسعت حياة المسلمين ، وترامت أبعاده مجتمعهم بانتشار الاسلام ، وتوالى الفتوح ، ودخول الناس في دين الله أفواجا ، وجدت حوادث ، ووقعت وقائع ، وقامت أوضاع ، والنصوص الدينية الموروثة في القرآن والسنة متناهية ، أى واقفة عند حد ، ولكن الوقائع والحوادث موصولة متجددة غير متناهية ، فلا بد من الاستنباط والاجتهاد ..

وفي عهد الخلفاء الراشدين بدت ملامح للاجتهاد ، وكان البارز في ذلك هو الخليفة عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، وعلى يديه خطا الفقه الاسلامى خطوات الى الأمام ..



وتفرق كثير من الصحابة في الأقطار والأمصار ، وبعضهم قد أوتى بصرا بالتفسير ، وقدرة على الاستنباط من القرآن والحديث ، فجعل كل واحد من هؤلاء يستنبط ما يستطيع ، ويث ما يعرف ، فاستمرت خطوات الفقه الى الأمام ..

كان في « المدينة » عمر ، وعلى ، وعبد الله بن عمر ، وزيد بن ثابت ، وأبى بن كعب ، وأبو موسى الأشعري ، وفي « مكة » عبد الله بن عباس ، وفي « الكوفة » عبد الله بن عتبة بن مسعود ، وفي « مصر » عبد الله ابن عمرو بن العاص . ولا شك ان هؤلاء الذين تفرقوا تفرق النجوم في الآفاق قد لاحظوا في استنباطهم وجهودهم الفقهية ظروف المكان والزمان والناس ..

وكان لهؤلاء الصحابة الفقهاء تلاميذ تلقوا عنهم ، وزادوا فيما تلقوا ، وهؤلاء التلاميذ عرفناهم باسم « التابعين » ، وسموا « تابعين » لأنهم تلوا الصحابة ، واتبعوا هدى الرسول وسنن أصحابه ، وساروا في الطريق الذى سلكه أسلافهم ، وان كنا نلاحظ هنا ان بعض التابعين تميز بالافتصار على الحديث والنقل ، والبعض الآخر تميز برعاية ذلك

مع جهد يبذله عن طريق العقل والرأى ..
ولا شك ان « التابعين » الذين تفرقوا في الأمصار ، وازدادت أمامهم
الدولة اتساعا ، قد لاقوا أوضاعا وأحداثا وأمورا لم تعرض للصحابة
من قبل ، وكان عليهم أن يبحثوها ويفتوا فيها ، وبذلك ازداد نطاق
الفقه اتساعا ..

وينبغي ان نلاحظ ان فقه الصحابة والتابعين لم يجمد على النص
حرفيا ، بل تلمس في كثير من الأحيان معرفة الأسباب والعلل للأحكام ،
ليراعى هذه الأسباب والعلل عند الافتاء ، كما لاحظنا ان أقوال التابعين
في ميدان الفقه اختلفت بسبب التفرق في الأقطار ، والاختلاف بين
أوضاع الأمصار ، والتفاوت في الاطلاع على الأحاديث ..

وكان من وراء ذلك أن صار لكل فقيه من التابعين جملة آراء
مستقلة نستطيع أن نسميها مذهبا ، واشتهر من هؤلاء سعيد بن المسيب
وعبد الله بن عمر في « المدينة » ، ويحيى بن سعيد ، وربيعه بن عبد
الرحمن ، وعطاء بن أبي رباح في « مكة » ، وإبراهيم النخعي ، والشعبي
في « الكوفة » ، والحسن البصري في « البصرة » ، وطاووس بن كيسان
في « اليمن » ، ومكحول في « الشام » ... الخ ..



وفي عام ١٠٠ للهجرة رأينا خامس الراشدين عمر بن عبد العزيز يأمر
بتفريق العلماء والفقهاء في الأقطار ، ومن بينهم عشرة أرسلهم الى بلاد
افريقية ، وهم : أبو عبد الرحمن الجبلي ، وسعد التجيبي ، واسماعيل
ابن عبيد ، وعبد الرحمن بن رافع ، وموهب المعافري ، وحيان بن أبي
جبلة ، وبكر بن سواده ، وجعثل بن عاهان ، وطلق بن جابان ، واسماعيل
ابن عبيد الله ، وقد تحدث عنهم بتوسع أبو بكر المالكي في كتابه الكبير
« رياض النفوس » ..

وانطوت دولة بنى أمية ، وقامت دولة بنى العباس ، وظهر الصراع
بين العلويين والعباسيين ، وبين الشيعة والخوارج . وحدث التقاء بين

التفكير العربى والتفكير اليونانى ، بسبب الترجمة ونقل العلوم ، ودونت السنة النبوية وأقوال المفتين ، وازدهر الفقه فى الأقطار ، وكثر المشتغلون به ، وأصبح الفقهاء طبقات ، كل طبقة تلى سابقتها ، وتستمد منها ، وتزيد عليها ، وقد عنى أبو اسحاق الشيرازى بتفصيل الحديث عن ذلك فى كتابه « طبقات الفقهاء » ..

وفى هذا العهد تألق الأئمة الأربعة ، فكانوا كالبذور تحيط بهم حالات من النجوم والكواكب ! ..

وظهرت - كما سنرى - مدرسة الرأى والعقل ، بجوار مدرسة الحديث والنقل ، وازدادت كل منهما وضوحا وتميزا ، وكان من الطبيعى أن تنمو مدرسة الحديث فى الحجاز عامة - وفى المدينة خاصة - لأن الحجاز مهد السنة ، وموطن الصحابة الذين تلقوها وحملوها ، كما كان من الطبيعى أن تزدهر مدرسة الرأى والعقل فى العراق ، لأن العراق بلد جديد فى الاسلام بالنسبة الى الحجاز ، وهو بعيد عن موطن السنة ، وله تراث قانونى وحضارى ، فأهله محتاجون الى ما يقنعهم ، ولا بد فى اقتناعهم من الدليل والبرهان ، ومن هنا انفسح المجال أمام العقل والتفكير.

وإذا كانت مصادر الفقه الاسلامى قد بدأت فى عهد الرسول صلوات الله وسلامه عليه بالمصدرين الأساسيين وهما : القرآن والسنة ، فإننا نرى هذه المصادر تزيد وتتكاثر بمر الزمن واتساع الفقه ، ومن الفقهاء من يتشدد أو يتردد فى قبولها ، ومنهم من يرحب بها حتى تصير لديه عشرة مصادر ، فيكون من وراء القرآن الكريم والحديث أقوال الصحابة - وهى معروفة ، و « الاجماع » ويراد به اجتماع الناس على أمر ليس فيه حكم للقرآن ولا للسنة ، ويعرفه الفقهاء بأنه اتفاق جميع المجتهدين من الأمة الاسلامية فى عصر على حكم شرعى (١)

وكان هناك أيضا « القياس » وبيان أمره أن أحكام الشريعة معللة

(١) كان الاجماع معروفا للصحابة . يقول عمر فى عهده لشريح القاضى : « فان أئمة ماليس فى كتاب الله ، ولم يسن فيه رسول الله فاقض بما أجمع عليه الناس »

في الغالب بعلل يمكن معرفتها ، فمتى وجدت علة حكم منصوص عليه ،
أمكن نقل هذا الحكم الى أمر لا نص فيه متى وجدت فيه العلة نفسها ،
وقد يقال له : التسوية أو اللاحق ، وبعض الأئمة يجعل القياس
والاجتهاد والرأى شيئاً واحداً (١)

وانما يجوز القياس - بطبيعة الحال - للعالم بكتاب الله تعالى ،
وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، وأقوال السلف ، واجماع المسلمين ،
ولسان العرب ، مع بذل غاية الجهد في البحث والاستنباط ..
والتحقيق ان للرأى المستقيم نصيبه في اجتهاد الفقهاء منذ صدر
الاسلام ، واذا كانت هناك نصوص تدم القول بالرأى ، فالمراد بالرأى
فيها هو الرأى التابع للأهواء والأغراض ، الذي لا يستند الى أصل
من الدين !

وكان هناك « الاستحسان » في مجال الفقه ، والاستحسان يراد به
درء المفسدة وجلب المصلحة في حدود قواعد الدين العامة ، وهو طلب
السهولة في الأحكام فيما يتلى به الخاص والعام ، وعرفه بعض العلماء
يقوله : « هو العدول في مسألة عن مثل ما حكم به في نظائرها لوجه
أقوى » . وعرفه آخر بأنه العدول عن حكم اقتضاه دليل شرعى في
واقعة ، الى حكم آخر فيها ، لدليل شرعى اقتضى هذا العدول ! ..

وكان هناك في الفقه مراعاة « المصالح المرسلة » ، وقد تسمى
« الاستصلاح » أى طلب الصلاح ، ويراد بذلك تشريع الحكم في واقعة
لا نص فيها ولا اجماع ، بناء على مراعاة مصلحة مرسلة ، أى مطلقة
لم تقيد بنص في الدين يدل على اعتبارها أو الغائها ، فهي من المسكوت عنه
وكان هناك مراعاة « العرف » أو « العادة » .. أى مراعاة ما يتعارف
عليه الناس ، ويسيروا عليه غالباً في قول أو فعل ، بشرط الا يعارض
هذا العرف حكماً من أحكام الله تعالى ، أو قاعدة من قواعد الدين ..

(١) قال ابن القيم في كتابه « أعلام الموقعين » مانصه : « وقد كان أصحاب رسول الله صلى
الله عليه وسلم يجتهدون في النوازل ، ويقيسون بعض الاحكام على بعض ويعتبرون النظر
بنظيره »

ظهرت هذه الأصول والمصادر في حقل الفقه الاسلامى ، وعرفها الأئمة الأربعة ، ومنهم من توسع في قبولها ، ومنهم من رد بعضها أو تشدد فيه ، ولكن الذى لا شك فيه ان هذه المصادر كانت أشبه بكنوز ضخمة تفتحت أبوابها على الفقه الاسلامى فزادته ثروة وقوة وصلحية ! من خلال هذه الأضواء التى تألفت فى آفاق الشريعة تترجم للأئمة الأربعة تراجم لا يشتت بها طول ، ولا يجحف بها خلل ، فنستعرض لكل منهم صورة عن حياته تتعدد جوانبها : فنرى فيها عصره ومولده ، ونشأته وحياته ، وشيوخه وتلاميذه ، وطريقته وجهوده ، وآثاره ، وكتبه ، وصفاته ، وأخلاقه ، وبعض ما نلاحظ عليه ، وأقوال الناس فيه ، والمحن والبلايا التى تعرض لها ، فالملاحظ فى تاريخ هؤلاء الأئمة أنهم قد ذاقوا ألوانا من العذاب فى سبيل عقيدتهم ورأيهم ، ولكنهم صبروا الصبر الجميل ، ففازوا من الناس بالثناء الجليل ، ومن الله تعالى بالثواب الجزيل ..

وقد حرصت على أن أتتبع طائفة من كلمات كل امام ، التقطها من هنا وهناك ، وأقدمها طاقة منظومة ، لتعطينا فكرة جلية عن بيانه وأفكاره وآرائه فى الدين والدنيا ..

كما حلا لى أن أتحدث عن صلة هؤلاء الأئمة بالشعر والغناء والفن ، وطييات الحياة ، مع ان هذا الجانب من حياة هؤلاء الأئمة مغمور مغمور ، يأتى فى تراجمهم المتناثرة رذاذا خفيفا على أطراف أوراق عريضة بالأشجار باسقات . ولعلنى فعلت ذلك لتتبين سماحة الاسلام ، وسعة الأفق عند هؤلاء الأئمة ، ولندرك ان الدين الالهى العظيم الذى جاء ليصوغ أتباعه صياغة جديدة محيطة تهيئهم ليكونوا رهبان الليل وفرسان النهار ، لا يمنع أهله أبدا أن يتمتعوا بطييات الحياة وزينة الدنيا ، ما داموا لا يقتربون اثما ، ولا يضيعون واجبا ، ولتقتنع بأنه من الخير الكبير أن تزول تلك الجفوة الواسعة عند بعض الناس بين الدين والحياة ، وأن تزول تلك القطيعة المصطنعة بين الدين والفن ،

ولنؤمن بما كررت قوله من قبل : اذا تفنن رجل الدين وتدين رجله ،
 الفن ، التقيا في منتصف الطريق لخدمة العقيدة العظيمة والفن السليم !
 ولا أنسى أن أشير هنا الى ظاهرة لها خطورتها ، فهناك من يحاول
 انتقاص هؤلاء الأئمة الأربعة ، والتهوين من شأنهم في كيد وخبث ،
 فيقول : انهم كبقية الناس يخطئون وينحرفون ، ولا ينبغي أن تأخذ
 بأرائهم وأقوالهم ، وهذا سعى خفى وبيل ، يراد منه في الواقع هدم
 ذلك التراث الاسلامي الضخم الذي بناه أولئك الأئمة الأعلام في صبر
 وجلد ، وبنور وإيمان ، وباستمداد قويم من كتاب الله تعالى وستة
 رسوله صلوات الله وسلامه عليه ، بعد اعدادهم لأنفسهم أعظم اعداد ،
 فحفظوا القرآن ، وجمعوا السنة ، ودرسوا العلوم ، وتلقوا عن السلف ،
 وطهروا حواسهم ونفوسهم بالتعبd والتجهد ، وازدانوا باليقين والاخلاص ،
 وكأن هؤلاء الكائدين يريدون أن يأتوا على بنيان الدين من القواعد ،
 ولكنهم يجعلون ذلك على مراحل ، يبدأونها بالحملة على علماء الدين
 لأنهم كسائر البشر ، ثم ينتقلون الى انتقاص أئمة الفقهاء ، لأنهم غير
 معصومين ، ثم ينتقلون الى الطعن على السنة النبوية متذرعين بأنه قد
 أضيف اليها ما ليس منها ، ثم لا يكون أمامهم بعد ذلك الا القرآن
 الكريم ، وأغلب الظن ان نفوسهم ستسول لهم حينئذ أن يهاجموه :
 « يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم ، ويأبى الله الا أن يتم نوره
 ولو كره الكافرون » ..

واذا شغلنا الحديث اليوم عن هؤلاء الأئمة الأربعة ، فقد يتسع قابل
 الزمن لحديث عن أئمة آخرين من أمثال : الليث بن سعد ، والأوزاعي ، وابن
 حزم ، وداود الظاهري ، وزيد بن علي ، وجعفر الصادق ، وابن تيمية ،
 وابن القيم ، رضوان الله عليهم أجمعين ..

أسأل الله عز وجل أن يجعل هذا العمل لوجهه ، وأن يبارك فيه ،
 وينفع به ، انه أكرم مسئول وأفضل مأمول ، وسبحان من لو شاء لهدى
 الناس جميعا الى سواء السبيل ..

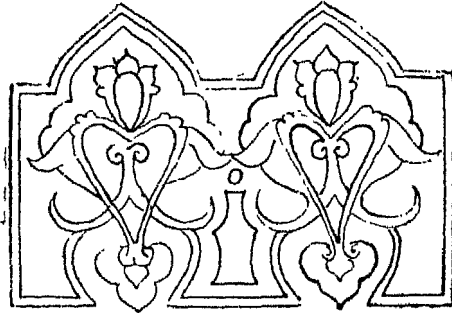
أحمد الشرباصي

الباب الأول

الإمام أبو حنيفة

ولد سنة ٨٠ هـ

توفي سنة ١٥٠ هـ



أبو حنيفة

مكانة أبي حنيفة :

هكذا شاءت الأقدار أن يكون الامام أبو حنيفة أول الأئمة الأربعة :
كان أولهم ميلادا ، وأسبقهم وفاة ، فاستحق أن يأتي الحديث عنه في
الطليعة ..

وليس أبو حنيفة بالرجل الهين الشأن أو الضعيف المكانة ، حتى
لا نلتبس للعناية به الا انه سبق غيره في الميلاد والوفاة ، فقد كان رجلا
عظيما في أكثر من جهة ، كان ناجحا في سعيه لحياته ودينه ، وكان نابغا
في تحصيله العلم والمعرفة ، وكان بارعا في تفكيره واستنباطه ، وكان
صاحب أخلاق فاضلة تؤهله لمزاملة أهل الصدارة من الأئمة الأعلام ،
واستطاع أن ينتزع لشخصه مكانة ملحوظة في مجتمعه الذي اختلقت
فيه عوامل الانصاف بعوامل الاعتساف ، وحسبه انه كسب لنفسه ذلك
اللقب الذي سار مسير الشمس في الآفاق ، وهو لقب « الامام الأعظم » ،
فاذا أضفنا الى ذلك انه كان « فقيه العراق » ، و « امام أهل الرأي »
أدركنا الباعث الذي بعث عبد الله بن المبارك على أن يقول في أبي حنيفة :
« انه مخ العلم » ، والباعث الذي بعث ابن جريج على أن يقول فيه :
« انه الفقيه » ! ..

عصر أبي حنيفة :

قضى أبو حنيفة معظم حياته في عهد الدولة الأموية ، ثم شهد جانبا

(1) ينبغي أن نلاحظ أن عصر أبي حنيفة مشترك بينه وبين بقية الأئمة الأربعة في جزء كبير
منه ، فقد ولدوا وماتوا جميعا فيما بين أواخر القرن الأول الهجري ووسط القرن الثالث ،
أي ما بين سنة ثمانين وسنة إحدى وأربعين ومئتين كما سنرى

من عهد الدولة العباسية ، فقد ولد في زمن ولاية الخليفة الأموي ، عبد الملك بن مروان ، وتوفي في ولاية الخليفة العباسي الأول أبي جعفر المنصور ..

وهذا العصر الذي شهده أبو حنيفة يمتاز بكثرة الاتجاهات الدنيوية والدينية ، والحركات الفكرية والسياسية ، فقد حول الأمويون الخلافة الراشدة الى ملك عضوض ، ومن وراء ذلك حدثت فتن واضطرابات ، وظهرت النزعة العربية القومية الواضحة في العهد الأموي ، وبدرت بوادر من التعصب على غير العرب ، واشتدت الوطأة حيناً على الموالي ، وتهياً المجتمع لألوان من المؤامرات والدسائس ، وظهر الاضطهاد لآل بيت الرسول عليه الصلاة والسلام ..

ثم أقبل العصر العباسي ، فاذا الصراع يشتد بين العباسيين والعلويين ، واذا النزعة الأعجمية تظهر « كرد فعل » على النزعة العربية القومية السابقة ، واذا النحل والمذاهب تتكاثر ، واتسع الاتصال بالفلسفة اليونانية والفكرين : الفارسي والهندي ، عن طريق التوسع في الترجمة .. وكان المجتمع على عهد أبي حنيفة يضم كثيرين من شعوب مختلفة ، ففقد التجانس والتناسق ، فهناك عرب ، وعجم ، وفرس ، وروم ، وهناك الموالي ، والجواري ..

واتسعت الحياة المادية والاجتماعية بعد أن فتح الله تعالى على العرب والمسلمين ما فتح من أقطار الدنيا وخيرات الحياة ، وكانت هناك محاولات للتوفيق بين حياة المجتمع والنصوص الدينية ، فكثرت الأقوال في الفقه الاسلامي ، وظهرت الآراء والمذاهب ، وبرز في الحياة العلمية والدينية منهجان ..

أولهما : منهج النقل ، أو مذهب أهل الحديث ، وهو المنهج الاتباعي ، أو المتقيد بنصوص القرآن الكريم ، وما نقله الرواة من سنة الرسول عليه الصلاة والسلام . وكان من الطبيعي أن يكون لهذا المنهج أنصاره الكثيرون ، بمقتضى الحرص الشديد من المسلمين على تتبع كل ما قاله

الرسول الأمين ، أو فعله ، أو أقره ، لأنه المثل الأعلى ، والقذوة المثلى ، وهو المفسر الأول للدين ..

وثانيتها : منهج العقل ، أو مذهب أهل الرأي ، وهو المنهج الذى يضيف الى تقبل النص واحترامه اعمالا للفكر ، واستنباطا للحكم ، واجتهادا فى تفسير النص ..

وربما ساعد على ظهور هذا المذهب نمو المجتمع واتساعه ، بجوار ما نجم من تأثير بالتفكير اليونانى الذى أخذ طريقه الى المجتمع الاسلامى ، فأعطى العقل ارادة قوية فى البحث عن علل الأحكام وحكمة التشريع .. ولم ينشأ أبو حنيفة على هامش هذا المجتمع ، أو فى زاوية من زواياه ، بل عاش فى قلبه وصميمه وعاصمته .. عاش فى بغداد التى تموج بالعلم والعلماء ، والبحث والباحثين ، والجدل والمجادلين ، والتيارات المتعددة أحيانا والمتضاربة أحيانا أخرى ..

وبغداد هى عاصمة العراق ، والعراق يومئذ هو أقوى البيئات العلمية والاسلامية ، بما له من ماض عريق فى الناحية العلمية ، وبما فى أهله من استعداد للبحث والتفكير ، وبهجرة الكثير من العلماء اليه - والى بغداد عاصمته بوجه أخص - بعد أن اتخذته الخلافة العباسية قاعدة لحكمها ، فزادته قوة وجاذبية ..

ومن الطبيعى أن يغلب على العراق المنهج العقلى ، أو مذهب أهل الرأي ، بينما غلب على « المدينة » وما حولها المنهج النقلى ، أو مذهب أهل الحديث والنقل ، فقد ظلت المدينة ردحا طويلا من الزمن تمثل صخرة المقاومة أمام التيارات الاجتماعية والمادية الوافدة مع توالى الفتوح وتكاثر الأجناس ، لسذاجة الحياة فيها بالنسبة الى غيرها ، ولوثاقة اتصالها بسنة الرسول صلى الله عليه وسلم ، ففيتها كان محياها ، وفيها استقر جدته ومثواه ، والى جوار قبره أقام الكثيرون من أهل الصدر الأول ، يستمسكون بالذى هداهم اليه الرسول من سنة أو أثر ، ويعضون على ذلك بالنواجذ ..

أما العراق فقد نشأت فيه خلافة ودولة ومجتمع كبير ، وهذا كله يحتاج الى قوانين ونظم وأحكام ، فلا بد من النظر والتفكير .. ومن حول العراق بلاد غير اسلامية ، والعلاقات بينه وبين هذه البلاد تحتاج الى ايضاح الأحكام المتعلقة بها ..

وفي العراق وجد كثير من الموالي والجواري ، وشاع الغناء والسماع ، وعرف فريق من الناس طريقهم الى « الشراب » ، ولا بد أمام هذه الظواهر كلها من كلمة - بل كلمات - للفقهاء الاسلامي يقولها أهلوه ، ليرى الناس مدى قربهم من الدين أو بعدهم عنه ..

ثم ان هذا المجتمع الاسلامي قد نهض على أوضاع اقتضتها الادارة المختلفة المجالات ، وهو محتاج الى تقويم هذه الأوضاع دينيا ، والى تحديد واجبات الراعي والرعية ، والعلاقة بين الحاكم والمحكوم ..

لم يكن عجيبا بعد هذا كله أن يغلب على العراق مذهب أهل الرأي .. ولم يكن عجيبا ان نجد للرأي في حياة أبي حنيفة أثرا وأى أثر ! ..

حياة أبي حنيفة :

ولد أبو حنيفة في مدينة الكوفة - وقيل في الأنبار - سنة ثمانين للهجرة ، وهناك رواية ضعيفة تقول انه ولد سنة احدى وستين ، وهذا التاريخ لا يتسق مع الأحداث التي مرت على أبي حنيفة ، فالصحيح هو القول الأول ..

وأبو حنيفة اسمه : النعمان بن ثابت بن زوطى بن ماه مولى تيم الله ابن ثعلبة . ويروى انه عربى الأصل ، وانه من بنى يحيى بن زيد بن أسد - وقيل ابن راشد - الأنصارى ..

ولكن هذا القول غير صحيح ، فالمشهور ان أبا حنيفة من أصل فارسى ، واستدلوا على ذلك بعدة أمور ، منها : انه قيل في نسبه انه : « النعمان بن ثابت بن النعمان بن المرزبان » ، والمرزبان كلمة فارسية معناها : الرئيس من أبناء فارس الأحرار ..

ومنها وجود اسم « زوطى » في نسبه ، وهو اسم أعجمى ، وليس

بعربي ، ومنها ما روى في أكثر من مصدر ان أصله من « كابل » أو « ترمذ » ، وقد قيل ان أبا حنيفة هو أحد المقصودين بالحديث النبوي الشريف الذي رواه البخارى ومسلم ، وفيه : « لو كان العلم معلقا عند الثريا لتناوله رجال من أبناء فارس » ..

و « ثابت » والد أبى حنيفة قد ولد على الاسلام ، وروى انه من « الأنبار » . وروى انه أقام في « ترمذ » ، وقيل في « نسا » ، ولعله أقام في كل بلدة منها زمنا ، ويبدو انه كان تاجرا موسرا حسن الاسلام ، كما يروى انه التقى بالامام على بن أبى طالب رضى الله عنه ، فدعا له الامام ولذريته بالخير والبركة . وأما « زوطى » جده فقد كان مملوكا لبنى تميم الله بن ثعلبة ، ثم أعنتق ، ومن سلالة أبى حنيفة من ينكر هذا الرق ، ويقول انهم من أبناء فارس الأحرار ..

وأما والدة أبى حنيفة فليس بين أيدينا تفاصيل عن شخصيتها أو حياتها ، ولكننا نستطيع من متابعة أخباره ان ندرك بسهولة انه كان يجلبها ويعزها ويطيعها ، ويرى طاعتها سببا من أسباب التوفيق الالهى ، كما يرى عصيانها سببا من أسباب نقمة الله تعالى عليه ..

فقد روى أبو يوسف - وهو أكثر تلاميذ أبى حنيفة شهرة - ان أبا حنيفة كان يحمل والدته على حماره الى مجلس « عمر بن ذر » لأنها كانت تريد ذلك ، وهو يحرص على اطاعة أمرها ، ويقول أبو حنيفة : ربما ذهبت بها الى مجلسه ، وربما أمرتني أن أذهب اليه ، وأسأله عن مسألة فأتته وأذكرها له ، وأقول له : ان أمى أمرتني ان أسألك عنها ..

فيقول له عمر متعجبا : وانت تسألني عن مثل هذا ؟ .. يعنى ان أبا حنيفة يعرف هذا وأكثر منه ، فيقول أبو حنيفة : هى أمرتني ! .. فيقول له عمر : قل لى كيف هو حتى أخبرك ! ..

فيخبره أبو حنيفة بجواب المسألة ، ثم يعيد عليه عمر ما سمعه منه ، ثم يعود أبو حنيفة الى أمه ويقول لها : ان عمر قال فى المسألة كذا وكذا ، ولقد حدث أن استفتت أمه عن شيء ، فأفتاها فيه ، ولكنها لم تقبل ..

فتواه ، وقالت : لا أقبل الا فتوى « زرعة القاص » ..
 وطلبت منه أن يحملها اليه ففعل ، وقال لزرعة : أمتي تستفتيك في كذا
 فقال له زرعة : انت أعلم وأفقه ، فأفتها ..
 فقال أبو حنيفة : لقد أفنيتها بكذا ، ولكنها لم تقبل ..
 فقال لها زرعة : القول ما قال أبو حنيفة .. !
 ولقد حاولت الدولة اكراه أبي حنيفة على تولي القضاء في أيام مروان
 فلم يقبل ، فضربوه على رأسه ضربا موجعا ، ولما أطلقوا سراحه لم يشك
 الحبس ولا الضرب ، بل قال : « كان غم والدتي أشد على من الضرب » !
 ويظهر ان الضرب كان شديدا ، لأن الامام أحمد بن حنبل كان اذا
 ذكروا ذلك أمامه بكى وترحم على أبي حنيفة !

اشتغاله بالتجارة :

كان أبو حنيفة في أول أمره منصرفا الى الاشتغال بالتجارة وحدها ،
 ثم اشتغل معها بالعلم ، وظل يتاجر طيلة حياته ، وكان يتاجر في الخبز
 — وهو نوع من الثياب — ولعله أخذ الاتجار فيه عن أبيه ، وكان ماهرا
 في التجارة مسعدا فيها ، وكان له دكان معروف في الكوفة ، واستعان
 بشركاء في التجارة يسافرون له فيها وينوبون عنه ، ومن شركائه حفص
 ابن عبد الرحمن ..

وكان أبو حنيفة أمينا في تجارته لا يخدع مشتريا ، ولا يشتط في أخذ
 الربح ، ويذكر للمشتري ما في السلعة من عيب اذا كان فيها ، ويروي انه
 وكل الى شريكه « حفص » أن يبيع ثيابا فيها عيوب ، وأن يذكرها لمن
 يشتريها ، ولكن الشريك نسى ذلك ، وحاول أبو حنيفة أن يعرف المشتري
 فلم يهتد اليه ، فتصدق بالثمن كله ! ..

واستطاع أبو حنيفة أن يحسن الجمع بين التجارة والعلم ! ..

طلبه للعلم :

نشأ أبو حنيفة في الكوفة ، وهي حينئذ تشهد نشاطا علميا كبيرا ،
 فكان من الطبيعي أن يتجه أبو حنيفة الذكي المتوقد الذهن الى العلم ،

ويروى انه بدأ يتعلم النحو ، والنحو فى أصله قواعد مضبوطة وأقوال مسموعة ، ولا مجال فيها لتصرف العقل أو تعدد الرأى ، ولكن أبا حنيفة رجل يجب استخدام عقله ورأيه ، فأراد بمقتضى هذا أن يجمع كلمة « كلب » على « كلوب » ، كما تجمع كلمة « قلب » على « قلوب » ، فقالوا له : لا بد أن يكون جمع « كلب » هو « كلاب »

فضاق ذرعا بهذا الحجر ، وترك النحو الذى لا قياس فيه الى تعلم الفقه الذى يوجد فيه قياس يرضى عقله وذكاه ، وكان الذين رويوا لنا هذه الحادثة قد أرادوا أن يشعرونا بميل أبى حنيفة الى الأخذ بالرأى من أول الطريق ..

وبجوار الفقه اشتغل أبوحنيفة بعلم الكلام ، وكان له فيه بحوث منها : الفقه الأكبر — الرد على القدرية — العالم والمتعلم — رسالته الى البستى ..

وليس عجيبا أن يبرع أبوحنيفة فى هذا المجال ، فان للعقل فيه صيالا أى صيال ! ..

ويروى فى سبب انصرافه الى العلم أنه مرّ يوما على الامام الشعبى ، فدعاه الى الجلوس وقال له : الى من تختلف ؟ .. يعنى : الى أى العلماء تذهب لتتعلم منه ؟ .. فقال أبو حنيفة : أختلف الى السوق . فقال الشعبى : لم أعن الاختلاف الى السوق ، عنيت الاختلاف الى العلماء .. فأجاب أبو حنيفة : أنا قليل الاختلاف اليهم . فقال له : لا تفعل ، وعليك بالنظر فى العلم ومجالسة العلماء . فانى أرى فيك يقظة وحركة ! .. ووقعت كلمة الشعبى فى نفس أبو حنيفة ، وأخذ يضرب بسهمه الوافر فى العلم ، فنفعه الله عز وجل بكلام الشعبى ! ..

شيوخ أبى حنيفة :

عجبت حين قرأت فى طبقات الشعرائى أن أبا حنيفة كان فى زمنه أربعة من الصحابة ، هم : أنس بن مالك ، وعبدالله بن أبى أوفى ، وسهل بن سعد ، وأبو الطفيل ، وهو آخرهم موتا ، ولم يأخذ عن واحد منهم ! ..

فلماذا لم يأخذ عنهم ؟ .. من البعيد أن يكون قد تيسر له الأخذ واستخف به أو أعرض عنه ، فالغالب أنه عز عليه ذلك ، وإنما عز عليه أن يأخذ عنهم لأن منهم من مات وأبوحنيفة ما زال صغيرا ، مثل عبد الله ابن أبي أوفى الذي توفي سنة سبع وثمانين ، فكان عمر أبي حنيفة حينئذ سبع سنوات ، لأنه ولد كما عرفنا سنة ثمانين . ومثل سهل بن سعد الذي توفي سنة ثمان وثمانين ، أو سنة إحدى وتسعين ، وعمر أبي حنيفة في نحو الحادية عشرة

وأنس بن مالك مات - كما تقول الروايات التاريخية - سنة تسعين ، أو اثنتين وتسعين ، أو خمس وتسعين ، فكان أبو حنيفة حينئذ غير منصرف الى طلب العلم ، وسنه في الخامسة عشرة ، فقد عرفنا انه بدأ بالاشتغال في التجارة



بقي أبو الطفيل - وهو عامر بن وائلة - فقد مات سنة عشر ومئة ، فكان عمر أبي حنيفة حينئذ عشرين سنة ، وهي سن صالحة لتلقى العلم ، فلا بد أن يكون هناك مانع منع أبا حنيفة من التلقى عنه ، بدليل انه كان ينوه بأخذه العلم عن أخذوه من الصحابة ، فقد زار أبو حنيفة أبا جعفر المنصور الخليفة العباسي ، وكان عنده عيسى بن موسى ، فقال عيسى للمنصور عن أبي حنيفة : هذا عالم الدنيا اليوم .. فسأل المنصور أبا حنيفة : يانعمان ، عن أخذت العلم ؟ ..

قال : عن أصحاب عمر عن عمر ، وعن أصحاب علي عن علي ، وعن أصحاب عبد الله بن عباس عن عبد الله ، وما كان في وقت ابن عباس علي وجه الأرض أعلم منه فقال المنصور معجبا : استوثقت لنفسك ! ..

وفي رواية أخرى انه قال للمنصور عن أخذه الفقه : « عن ابراهيم عن عمر بن الخطاب ، وعلي بن أبي طالب ، وعبد الله بن مسعود ، وعبد الله بن عباس »

فقال المنصور : بخ بخ ، استوثقت ما شئت يا أبا حنيفة الطيبين
الطاهرين المباركين ، صلوات الله عليهم ..

ولقد كان لأبي حنيفة طائفة من الشيوخ والأساتذة ، منهم حماد بن
أبي سليمان الأشعري ، وزيد بن علي زين العابدين ، ومحمد الباقر زين
العابدين ، وجعفر الصادق ، وعبد الله بن الحسن بن الحسن ، وجابر بن
يزيد الجعفي ..

ولكن أكبرهم أثرا في نفس أبي حنيفة هو حماد بن أبي سليمان
الأشعري فقيه الكوفة ، المتوفى سنة عشرين ومئة ، ولقد قال أبو حنيفة
عنه : « كنت في معدن العلم والفقہ ، فجالست أهله ، ولزمت فقيها
من فقهاءهم » ، وهو يقصد انه عاش في بيئة علمية تموج بالعلم والفقہ ،
وتعمر بالبحث والنظر ، ومن حوله أهل العلم يجالسهم ويباحثهم ، وله
أستاذ جليل هو حماد بن أبي سليمان !

وتلقى أبو حنيفة عن حماد الفقه والحديث ، واذا كان قد تلقى جانبا
من الفقه عن ابراهيم النخعي والشعبي ، فان جلوسه اليهما لم يطل كما
طال مع حماد ، حيث جلس اليه أبو حنيفة - وهو في نحو الثانية
والعشرين من عمره - وظل يلازمه الى نحو الأربعين ، ثم استقل
بالتدريس في مسجد الكوفة بعد سن الأربعين

ويروي ان أبا حنيفة كان يتعلم « علم الكلام » (١) ، ويجلس على
مقربة من حماد ، وأقبلت امرأة ذات يوم على أبي حنيفة تسأله عن
مسألة ، فلم يعرف جوابها ، فأحالها الى حماد ، ورجاها أن تعود اليه
بعد ذلك لتخبره بجواب حماد ، فمضت المرأة اليه وسمعت جوابه ،
وعادت فأخبرت به أبا حنيفة ، فأعجب به ، وقال : لا حاجة لي بعلم
الكلام ..

وتحول الى مجلس حماد يسمع منه ، ويحفظ أقواله ، ويعيدها في

(١) وهو علم البحث في العقائد والجدل حولها ، ويسمى « علم التوحيد » لان بعض أبوابه
لدور حول اثبات وحدانية الله ، وقد خلطه بعض أهله بالفلسفة فتنعد